الفصل الخامس

فى التخلص من يد الملوك وذوى الأقدار بالبلاغة وحسن الاعتذار

□ إن من البيان لسحراً !! :

قال أحمد بن أبى داود : ما رأيت رجلاً عُرِضَ على الموت ورأى النطع[1] مفروشاً والسيف مَسْلولاً ، ولم يكترث لذلك ولا عَدَلَ به عما أراد إلاَّ تميم بن جميل ، وقد كان خرج على المعتصم فى أيام دولته ، ونزع يده من الطاعة ، وانقطع إلى بعض النواحى ، وكان قد عَظُمَ أمره على المعتصم ، ولقد رأيته وقد جيء به مكتوفاً أسيراً ، وكان قد اجتمع الناس من الآفاق والنواحى ينظرون كيف يقتله المعتصم !، وكان المعتصم قد جلس له مَجْلِسًا منكراً ما حدث منه ، وأمر الناس بالدّخول ، ودخل تميم وحضر السيّاف ، وفرش النطع ، وكان تميم جميلَ الوجه تامَّ الخلقة ، عَذْبَ المنطق ، فرآه المعتصم غيرَ دَهِشٍ ، ولا مُكْتَرِث لما سينزل به ، فأراد أن يَسْتَنْطِقَه ليعلم أين عقلُه فى ذلك الوقت ! .

فقال لتميم : إن كان لك عذر فائْت به ، فقال :

أما إذْ أذن أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى حمى بك صَدْعَ الدين ، وألَمّ بك مستوحش المسلمين ، وأنار بك سبيلَ الحق ، وأخْمدَ بك شِهابَ الباطل ، إن الذُّنُوبَ ياأميرَ المؤمنين لتُخْرِسُ الألسنةَ الفصيحةَ ، ولتُصَدّع الأفئدةَ الصحيحة ! .

ووالله لقد كَبُرَ الذنب ، وعَظُمتَ الجريرة[2]، وانقطعت الحُجّة ، وساءَ

---

(١) النّطع (بفتح النون المشدّدة وكسرها وسكون الطاء وفتحها وكسرها) بساط من الجلد كثيرا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل يقال : عَلَّى بالسيف والنّطع.

(٢) الجريرة : الجناية والذنب ، وجاء فى المثل : « فى الجريرة تشترك العشيرة » يضرب فى الحث على المواساة والتعاون .

الظَّن ، ولم يبق إلَّا عَفْوك أو انتقامك ، وأنت إلى العفو أقرب ، وهو بك أشبه وأليق ، ثم أنشد هذه الأبيات :

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْعِ كامنًا ... يلاحظنى من حيث لا أتَلَفَّت
وأكْثَرُ ظَنِّى أنَّك اليومَ قاتلى ... وأىُّ امرىءٍ مما قضى الله يَفْلِتُ
ومنذا الذى يأتى بعذرٍ وحُجّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عَيْنَيْه يُصْلَتُ
وما جَزَعِى من أن أموتَ وإننى ... لأعلم أن الموت حَتْمٌ مؤقتُ
ولكنّ خَلْفِى صِبْيَةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حَسْرَةٍ تَفَتَّتُ
كأنى أراهم حين أُنْعَى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدودَ وصَوّتُوا
فإنْ عِشْتُ عاشُوا سَالِمينَ بغِبطةٍ ... أَذُود الرّدَى عنهم وإن مت موتوا

قال : فبكى المعتصم حتى ابتلت لحيتُه ، وقال : « **إن من البيان لسحرا** »[1]

ثم قال : والله ياتميم كاد السيفُ يسبقُ العفوَ ، وقد وهبتك لله تعالى ولصِبْيتك ، وعفوتُ عن زَلّتكِ ، ثم أمر بفتاه فعقد له الولاية على موضعه الذى كان خرج فيه ، ووصله بشىء كثير .

[كنا أسراك وصرنا ضيوفَك]

وقدم إلى معن بن زائدة أسرى ، فعرضهم على السيف ، فقام إليه رجل منهم وقال : « أيها الأمير نحن أسراك ونحن والله جياع من أثر الطريق ، فإن رأيت أن تُطْعِمنَا ففى كل ذات كبد حَرَّا أجر»[2]، فأمر معن بإطعامهم ، فأحضرت الموائد وعليها الطعام ، فاجتمعوا ، وأكلوا ، ومعن ينظر إليهم ، فلما فرغوا قام رجل منهم وقال : يأيها الأمير كنا أسراك ، وقد صرنا ضيوفَك ؛ فانظر ما يصنع مثلك بأضيافه ؛ فخلى سبيلهم .

---

(١) استشهاد بالحديث الشريف المرفوع فى صحيح مسلم (٢/٥٩٤) .
(٢) ذكره العجلونى تحت رقم ١٨٤٥ ولفظه :
« فى كل ذات كبدٍ حراءَ أجر »
وقال : رواه البخارى عن أبى هريرة مرفوعا ، وفى رواية « فى كل ذات كبد رطبة اجر »
وفى الباب عن سراقة عند البيهقى بلفظ « فى الكبد الحارّة أجر » .

[أى رب ! سل هذا لم قتلنى ؟!!]

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل من أصحاب المختار[1]، فقال : أصلح الله الأمير ما أقبحَ بك إذْ أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يضىء فأتعلق بك وأقول : أى رب ؛ سل هذا لم قتلنى ؟! فقال مصعب : أطلقوه واجعلوا له ما وهبت من عمره فى سعة .

قالوا : بماذا ؟ قال : أعطوه مائة ألف درهم ، قال : أُشْهِدُك أيها الأمير أنى جَعلت نصفَها لابن قَيْس الرُّقَيَّات ، قال : لم ؟ قال : لأنه قال فيك هذه الأبيات :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ مِنَ اللـ ـه تَجَلَّت عَنْ وَجْهِهِ الظلماءُ
ملكه مُلكُ رحمة ليس فيه جبروتٌ يُخْشَى وَلَا كِبرياءُ
يتقى اللهَ فى الأمور وقد أفْلَح مَن كان هَمُّه الاتقاءُ

□ أُفٌّ لهؤلاء الجِيَف !! :

أمر الحجاج بقتل أسرى ، فقتل منهم جماعة ، فقال رجل منهم وقد عُرِضَ على القتل لا جزاك الله عن السُّنَّة خيراً ياحجاج ، إن كنا أسأنا فى الذنب فوالله ما أحسنت فى العفو ! ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ [محمد : ٤] ، فهذا قول الله تعالى فى الكفار فكيف فى المسلمين ؟! وقد صدق قائل هذا البيت :

وما نَقْتُل الأَسْرَى ولكن نفكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ القلائد

فقال الحجاج أف لهؤلاء الجِيَف ، والله لو أنهم قالوا مثل ما قال هذا الرجل ما قتلت أحدًا منهم ، ولكن أطلقوا بقيتهم ! .

□ لماذا عفا عنه ؟! :

وقال رجل لبعض الملوك وقد أحضره ليعاقبه على جناية جناها : أنا ممن

---

(١) المختار الثقفى ابن أبى عبيد من زعماء الثائرين على بنى أمية وقتل فى محاولة يائسة للدفاع عن الكوفة وقد حاصره فيها مُصْعَب بن الزبير .

لا يَحُجَّك[1] عن نفسه ؛ ولا يغالطك فى جُرمه ، ولا يلتمسُ رضاك إلَّا من جِهَةِ عفوك ، ولا يستعطفك الاعتراف بالزّلة ! .

فاستحسَن ذلك منه وعفا عنه ، وأمر له بجائزة .

□ خفت أن يسألنى الله تعالى لم فعلت ؟ ويسألك لم رضيت ؟! :

وأقبل المنصور يومًا راكبًا والفرج بن فضالة جالس ومعه جماعة ، فقام الناس كلهم وهو لم يقم ، فرآه المنصور فاشتد غضبه ودعا به ، فقال : ما منعك من القيام مع الناس ! قال : خفت أن يسألنى اللهُ تعالى لم فعلت ؟! ويسألك لم رضيت ؟ وقد كرهه[2] النبى – ﷺ –، فسكن غضب المنصور وانشرح ! .

□ لماذا خلّى سبيله ؟! :

وخَرَج رجل على سليمان بن عبد الملك ، فَسلِمَ منه ثم ظَفَر به سليمان فى وقت آخر فعفى عنه ، ثم خرج على سليمان أيضًا فنَجا منه ، ثم ظفر به أيضًا فعفى عنه ، ثلاث مرات ، ثم أمر بضرب عنقه ، فقال الرجل : اللهَ اللهَ ياأميرَ المؤمنين ، فقال سليمان : أليس قد عفوت عنك ، ثم عفوت ، ثم عفوت ؟!!، فقال الرجل : أليس الله قد أظفرك بى ، ثم أظفرك ، ثم أظفرك؟!!، قال : نعم والحمد لله ، ثم خلى سبيله .

[عمر والفارسى]

وَجِئَ بالهُرْمُزَان[3] الفارسى بين يدى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – مأسورًا ، فدعاه عمر إلى الإسلام فأبى ، فأمر بقتله ، فقال : ياأمير المؤمنين قبل أن تقتلنى اسقنى شربة من الماء ولا تقتلنى ظمآناً ، فأمر عمر بقدح

---

(١) حَجّه يَحُجُّه : غلبه بالحجة ويقال أيضا : حاجّه فحجّه .

(٢) فى الحديث الصحيح الذى ذكره الخرائطى فى مساوىء الأخلاق ومذمومها :
« من سره أن يمثُلَ له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » .
إسناده صحيح وأخرجه أبو داود (٥٢٢٩) والترمذى (٢٧٥٦) وحسنه ، وأحمد (٩١/٤ ، ٩٣ ، ١٠٠) والبخارى (٩٧٧) فى الأدب المفرد .

(٣) من أمراء الجيش الفارسى فى معركة القادسية .

مملوء ماء ، فلما صار القدح ، بين يديه قال : أنا آمنٌ حتى أشربه ياأمير المؤمنين ، قال : نعم لك الأمان حتى تشرب هذا الماء فألقى الماء من يديه فأراقه !، ثم قال : الوفاءَ الوفاءَ ياأمير المؤمنين ، فقال عمر : دعوه حتى ننظر فى أمره ، فلما رُفع عنه السيف ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله !.

فقال له عمر : لقد أسلمتَ خيرَ إسلام ، فما أخرْك ؟! قال : خِفْتُ أن يقال عنى : إننى أسلمت خوفاً من السيف ، فقال عمر - رضى الله عنه - : إن لفارس لَحُلومًا استحقت ما كانت فيه من الملك ، ثم إن عمر بعد ذلك كان يشاوره فى إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه[1].

[عفو المأمون]

□ اجعل عفوك عن هذاالحد ذنباً من الذنوب التى يُستَغفَرُ الله منها ! :

وسرق شاب سرقة فأتى به إلى المأمون ، فأمر بقطع يده ، فقُدِّم لتُقْطَعَ يدُه ، فقال :

يدى ياأمير المؤمنين أعيذُها بعفوك أن تلقى مكانك شينها
فلا خيرَ فى الدنيا ولا حاجة بها إذا ما شِمالٌ فارقتها يمينُها

وكانت أم الشاب واقفة عند رأسه ، فبكت وقالت : ياأمير المؤمنين ! ولدى وواحدى ناشدتُك الله إلا رحمت قلبى ، وهدّأتَ لوعتى ، وجُدتَ بالعفو عمن يستحق العقوبة ؟ فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعالى ! .

قالت : ياأمير المؤمنين اجعل عفوَكَ عن هذا الحد ذنبًا من الذنوب التى يستغفر الله تعالى منها !! ..

فرَقّ المأمون لها وعفا عنها ، وعن ولدها ! .

□ عبد الملك بن مروان يعفو عن رجل من أصحاب الزبير ! :

وأتى عبد الملك بن مروان برجل من بنى مخزوم وكان من أصحاب الزبير ،

---

(١) انظر تاريخ الطبرى (٨٨/٤ - ٨٩) حوالى ١٧ هـ .

فلما حضر بين يديه قال له عبد الملك : أليس الله قد رَدّك إلى بئس المَردّ ؟! ورجع بك إلى بئس المرجع ؟! .

قال : ياأمير المؤمنين إن الله تعالى ردنى إليك ورجع بى إلى مجلسك فإن كان الله تعالى قد ردنى إلى بئس المَرَدّ ، وأرجعنى إلى سُوءِ المرجع فأنت أَخْبَرُ بنفسك ؟، فقال عبد الملك : أطلقوه ، ثم أمر له بجائزة .

[عفو الرشيد]

□ ماتريد أن أصنع بك ؟! :

وخرج على الرشيد رجل خارجىّ فأنْهَضَ إليه الرشيد جيشًا فظفر به ، فأحضره بين يديه فقال له الرشيد : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : الذى تريد أن يصنَع الله بك إذا أوقفك بين يديه ! .

فأطرق الرشيد ساعة ، وقال : خلّوا سبيلَه ! .

فلما خرج من بين يديه قال له من حضره : ياأمير المؤمنين أنفقتَ أموالَك ، وأتعبتَ رجالَك ، وأطلقت عدوك بكلمة واحدة ، لا يأمن أمير المؤمنين أن يتجرأ عليه أهل الشر ! .

قال : ردوه ، فلما مثل بين يديه علم أنهم تحدثوا فيه عنده ! .

فقال : ياأمير المؤمنين لا تُطِعْ فى أسيرِك أحداً فإن الله تعالى لو أطاع فيك غيرَك ما استخلفك ساعةً واحدة ، فقال : خلوا سبيله لا يعاودنى أحدٌ فيه ! .

[عفو المنصور]

وحدث أحمد بن موسى ، قال : ما رأيت رجلا أثبت جَناناً[1] من رجل قد وُقِعَ[2] فيه عند المنصور وقالوا : إن عنده ودائع وأموالاً وسلاحًا لبنى أمية ، فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره ، فأُحْضِرَ بين يديه ، فقال له المنصور : قد رُفِعَ إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحًا لبنى أمية ، فأخرج لنا منها ، واحمل جميع ذلك إلى بيت المال .

---

(١) الجنان : القلب ، وفى المثل : « إذا فرح الجنان بكت العينان » .

(٢) عابه وسبه من اطلع على عوراته ، أو وشى به لدى المنصور .

فقال الرجل : ياأمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية ؟ قال : لا ، قال : فوصى أنت ؟ قال : لا ، قال : فلم تسأل عن ذلك ؟! فأطرق المنصور ساعة ؛ وقال : إن بنى أمية ظلموا الناس ، وغصبوا أموال المسلمين وأنا آخذها وأردها إلى بيت مال المسلمين ، قال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بَيِّنَةٍ يقبلها الحاكم على أن المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدى ، وأنه هو الذى اغتصبوه من الناس ، وأمير المؤمنين يعلم أن من بنى أمية طائفة معهم أموال لأنفسهم غير أموال الناس التى اغتصبوها على ما يزعم أمير المؤمنين ، قال : فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : ياربيع صدق الرجل ما يجب لنا عليه شىء ، ثم قال للرجل : لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال : ماهى ؟ قال : آن يجمع بينى وبين من سعى بى إليك ، فوالله ياأمير المؤمنين مالبنى أمية عندى ودائع ولا مال ولا سلاح ، وإنما لما حضرتُ بين يدى أمير المؤمنين ، وعلمت ماهو عليه من العدل والإنصاف ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، وأنه لا يجوزه ذلك أيقنت أن هذا الكلام الذى صدر منى هو أنجح وأصلح لما سألتنى عنه ، وأقرب إلى الخلاص ، فقال المنصور للربيع : اجمع بينه وبين الرجل الذى اتهمه فأحضر الرجل ، فلما رآه قال : هذا أخذ لى خمسمائة دينار ، وهرب ولى عليه مسطورٌ[1] بها ، فأحضرهما بين يدى أمير المؤمنين ، فاستنطق الرجل فأقر بالمال فى ذمته فقال الرجل : ياأمير المؤمنين قد وهبتها له لأجلك ، وأدفع له خمسمائة دينار أخرى لأجل حضورى فى مجلس أمير المؤمنين ، فاستحسن المنصور فعله ، وكان كثيرا ما يدعوه إلى مجلسه .

(١) أى كتب صكا ووثيقة بذلك .